(١)
قبل الرسالة

جاء فى الروض الآنف : « وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زار قبر أمه بالأبواء فبكى وأبكى».

قبل الرسالة

قبل الرسالة المحمدية ، كانت مكة من اشهر المدن فى شبة الجزيرة العربية ، لان بها الكعبة بيت الله الحرام ، حيث يحج اليها العرب من كل مكان ، مما اكسب اهلها احترام باقى القبائل ولكن الكعبة كانت مليئة بالاوثان الذين يتقربون بها إلى الله زلفى .

لقد نسى الناس رحيق السماء . . نسوا عبادة التوحيد الخالص الذى نادى بها ابراهيم الخليل ، وابنه اسماعيل عندما أقاما القواعد من البيت .

وكان أهل مكة مشغولون بتجارتهم إلى الشام وإلى اليمن مايصدرونه ومايستوردونه من كليهما . . ثم كانوا يسمرون اما بالحديث عما يجرى من احداث فى مكة ، أو سماع الشعر ، أو ما يتناهى اليهم مما يجرى على ساحة القبائل الأخرى ، وربما أيضا قضوا وقتهم فى الحديث عما يقصة التجار الذين سافروا إلى الشام او اليمن عما شاهدوا فى هذه البلاد من عمران وازدهار تجارى . . أو مايسمعونه عن صولة الروم فى بلاد الشام وفلسطين ، وبدون ذلك فالحياة عندهم هادئة راكدة مملة . . كل يعمل فى تجارته البسيطة . . فى العطارة . . أو الجزارة . . أو بيع الملابس المستوردة من اليمن أو الشام .

وفى هذه البيئة البسيطة . . ولد محمد عليه الصلاة والسلام ومات والده عبدالله قبل ولادته ، و عندما ولد ارسل به جده عبدالمطلب إلى البادية ليرضع فى بنى سعد عند مرضعته حليمة السعدية .

وعندما عاد إلى مكة بعد عامين قضاهما فى البادية ، وشب صحيح

البدن، عادت به حليمة إلى مكة ، وقد زاد ولعها وحبها لهذا الصغير الذى شعرت بالبركة تحل بها عندما احتضنته وراعته ، وتعلق به اخوته فى الرضاعة (عبدالله والشيماء) . . عندما عادت به تمنت ان يرجع معها مرة ثانية فقد أصبحت الحياة عند حليمة السعدية وزوجها الحارث بلا طعم بدون هذا الصغير اليتيم التى حلت بركته ديار بنى سعد .

لقد عادت بالطفل ليمكث معهم ثلاث سنوات اخرى ، كان ينمو خلالها نموا سليما ، وكان فى سنه الصغيرة هذه يخرج مع أولاد حليمة لرعى الغنم . . و لاحظت حليمة السعدية ان محمدا دائم التأمل فى السماء . . و دائم التامل فيما حوله من مشاهد الطبيعة . . كثير التفكير . . كثير الصمت . . وخشيت حليمة على الطفل الصغير فرددته إلى جده عبدالمطلب وأمه آمنة بنت وهب التى فرحت بطفلها فرحا شديدا .

وقررت آمنه ان تزور قبر زوجها فى يثرب وأخذت معها طفلها الصغير ، وجاريتها (بركة) . ولتنزل ضيفة عند أخوال عبدالمطلب من بنى النجار . . وفى طريق العودة مرضت آمنه بنت وهب ، ثم سرعان مالفظت أنفاسها الأخيرة عند (الأبواء) . . !

وشاهدها محمد قبيل رحيلها وهى تعانى المرض وتغالبه حرصا على الطفل الصغير ، وشاهدها عندما ماتت ، فلم يملك الا ان يبكى عليها اشد البكاء ، ويحزن عليها أشد الحزن ، وعادت به (بركة) إلى مكة ، حيث عوضة جده عبدالمطلب عما فقده من حنان بفقد الأم . . ولكن هذا اليوم ظل محفورا فى قلب محمد . لم ينسى قط طوال حياته . . هذا اليوم الذى فقد فيه اعز الناس إلى قلبة ، حتى ورد عنه قوله بعد ذلك

ـ لقد ولدت والحزن رفيقى . !

مات والده . . ولم يره قط . . ولم يرس بأمه سوى عشرين يوما كما يقول الرواة .

وماتت امه وهو فى السادسة من عمره .

وكأن «عبدالله» و«آمنه» . . جاءا إلى هذه الحياة ، ليودعا محمد الحياة . . هذا الإنسان العظيم ، والنبى العظيم ، الذى سيوكل إليه ربه أخر رسالات السماء . ويموت عبدالمطلب ومحمد فى الثامنة من عمره . ويكفله عمه أبو طالب . . الذى أحب محمدا حبا جما . .

ورغم كثرة اولاد ابى طالب الا أنه كان يؤثر ابن اخيه عليهم ، فلا يستريح حتى يراه قد اخذ نصيبه من الطعام . لانه كان شديد الحياء ، وكان لا يمد يده إلى الطعام الا بعد ان يمد اولاد عمه ايديهم إلى الطعام .

وعمل محمد فى رعى الغنم . . غنم عمه أبى طالب وغنم بعض أهله .

وشاء الله أن يحفظ هذا الصبى الذى سيصبح أخر رسل الله ، فلم يعرف فى شبابه لهوا ولا عبثا ، بل كان مثال الشاب الورع . . الذى يرعى حقوق الناس . . ويحترم الأخرين . . ولا يعتدى على أحد ، ولا يتناول احد بسوء . . حتى اللهو البرىء ابعده الله تعالى عنه .

وتروى كتب السيرة كيف أنه أقيم حفل عرس فى مكة . . كان فيه ضرب الدفوف ونغمات المزامير ، وحض أحدهم محمدا أن يذهب معه للاستماع بهذا الحفل ومايجرى فيه من لهو الشباب ، ولكن محمدا قبل أن يتأهب للذهاب كان يغط فى نوم عميق . . !

وقد تحدث الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك فيما بعد حين آلت اليه الرسالة بقوله [1] :

(١) الحديث رواه الإمام على وذكره ابن كثير .

ـ دخلت حتى أتيت أدنى دار من دور مكة ، فسمعت عزفا بالغرابيل (الدفوف) والمزامير .

فقلت : ما هذا ؟

قالوا : تزوج فلان فلانه

فجلست انظر ، وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس !

فرجعت إلى صاحبى فقال : مافعلت ؟

فقلت : مافعلت شيئا .

ثم اخبرته بالذى رأيت .

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر (الهو) ففعل .

فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة . فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبى ، فقال : ما فعلت ؟

فقلت : لا شيء .

ثم أخبرته الخبر . . فوالله ما همت ولا عدت بعدها بشئ من ذلك حتى اكرمنى الله عز وجل بنبوَّته .

وعندما بلغ محمد الثالثة عشر من عمره واراد عمه أن يسافر إلى الشام ، طلب منه ابن أخيه أن يسافر معه إلى الشام ، لم يستطع أبوطالب إلا الموافقة . . وأثناء سفره مر على دير يتعبد فيه راهب اسمه (بحيرا) . . و اعترض القافله هذا الراهب . . الذى شاهد سحابة تظلل محمدا . . ويدور حوار طويل بين الراهب أبوطالب . . يطلب فيه الراهب من عمه أن يعود بمحمد إلى مكة . لأنه يخشى عليه من غدر اليهود !

وعاد أبوطالب بابن أخيه إلى مكة . . وقد لاحظ عليه عمه عزوفه وكراهيته الشديدة للأصنام التى يمتلىء بها بيت الله الحرام .

وبلغ محمد مبلغ الشباب . . شاب يمتاز بالقوة والوسامة والخلق الكريم ، حتى أطلقت عليه مكة لقب (الأمين) .

ولكنه فى نفس الوقت دائم التأمل . . دائم التفكير فى هذا الكون الذى يعيش فيه . . يتأمل النجوم فى سماء مكة الصافية ويطيل الفكر فى هذه الظاهرة ، وغيرها من ظواهر الكون . . الشروق والغروب . . السماء المتألقة فى كبر السماء . هبوب الرياح . . النهار والليل . . تقلب فصول السنة . أنه يريد أن يستشف ما وراء هذه الظواهر . . حتى شفت روحة وسمت . . وارتقى حسه . . وعزف عن دنيا الناس . . فلا عرف السهر . . ولا عبد صنمًا من الأصنام . . بل كان يضيق بها ذرعا . . كان الله يعده للرسالة الخاتمة .

(٢)
الأسرة المحمدية

«أنا خير الناس .. أبا وأما .. وأخا وأختا .. أبى الذى ربانى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وأمى خديجة ، وأخى القاسم ، وأختى فاطمة .. فمن لأحد نسب كهذا».

هند بن أبى هالة

الأسرة المحمدية

بلغ محمد سن الشباب . . وهو يفيض حيوية وطهارة ونبلا . .

ليس هناك من لا يعرف فضلة فى مكة كلها . .

وقد سمعت عنه خديجة . . سمعت عن نبله وآمانته وطهارته فأرسلت إلى عمه أبى طالب ، حتى يتاجر محمد فى مالها ، ويخرج مع القافلة الذاهبة إلى الشام نظير أجر (أربعة من الأبل) ووافق أبوطالب . . ووافق محمد أن يذهب إلى الشام ويتاجر فى مال هذه السيدة الجليلة ، التى لم تعرف عنها مكة سوى الطهر ، والسيرة الحسنة .

وذهب محمد إلى الشام ومعه غلام خديجة (ميسرة) وعاد من تجارته بالربح الوفير ، وماكادت تراه خديجة حتى أحست نحوه بعاطفة نبيلة جياشة ، وخاصة بعد ماسمعته من غلامها ميسره . . وحديثه الجذاب عن محمد وتواضعة وقدرته على البيع والشراء وآمانته .

وأهم من كل ذلك ما رآه من أمر هذه السحابة التى كانت تظله لتقيه من حرارة الشمس منذ غادر مكة إلى أن رجع من الشام !

أن هذا الشعور النبيل الذى أحست به خديجة لم يكن وليد عودته من الشام، وتسليمه لها الأموال التى ربحها ، وحديثه عما اشتراه من الشام لتتاجر به فى مكة ، بل أن هذا الشعور قد ملأ عليها حياتها منذ استدعته وطلبت منه أن يذهب ليتاجر بأموالها فى الشام . . شعرت شعورا نبيلا نحو هذا الشاب الممتلىء أمانه وأخلاصا ، حتى انها خرجت إلى سطح منزلها عندما علمت

باقتراب مجيء القـافلة القادمة من الشام إلى مكة حـتى تراه ، وعندما رأته ، أهتز وجدانها لعودته سالما .

ولقد أخـذت خديجة تـفكر فى أمر هـذا الشاب التى مـال قلبهـا نحوه ، واستدعت صديقتها (نفيسه) ، وحدثتها عن مشاعرها تجاه محمد .

وما كان من نفيسة أن اقترحت عليها أن تتزوجه !

- كيف !

- دعى الأمر لى .

وتوجهت الصديقة إلى محمد ، حدثـته فى أمور كثيرة ، ثم عرضت عليه الزواج من خديجة . !

ووافق محمد على هذا الاختيار .

فخديجة سيدة مكة الثرية الجميلـة . . وقد تقدم لها الكثيرون للزواج منها فرفضـت هذه العروض خـشية أن يكـون السبب وراء هـذا الزواج الطمـع فى مالها . وكانت قد تزوجت قبل ذلك مرتين .

لقد شـعر محمـد بالارتياح لـهذا العرض ، وخـاصة أن خديجـة أخبرت صديقـتها بانهـا لاتريد منـه مهرا كبيـرا لا يقدر عليـه ، وعندما حـدث عمه ابوطالب فى ذلك ، شجعه على ذلك وأهداه عشرين ناقة لتكون مهرا له .

وذهب محمد مـع عمه أبوطالب لطلـب يد سيدة مكة ، وكانت تـبلغ من العمر أربعين عاما ، ويبلغ محمد من العمر خمسة وعشرين عاما .

وفى حفل الخطبة قال أبوطالب .

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيـم ، ونسل إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوبا ، وحرما آمنا وبعد :

فإن محمدا ـ ابن أخى ـ شاب لايوزن به فتى من قريش إلا زاد عليه شرفا وخلقا وعقلا ، وأن كان قليل المال فالمال ظل زائل ، وله فى (خديجة بنت خويلد) رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وقد ساق محمد إليها (عشرين ناقة مهرا) .

وتم زواج محمد بخديجة سيدة نساء مكة . . لتبدأ حياة جديدة لهذه الأسرة الكريمة ، التى باركها الله رب العالمين وانتقل محمد ليعيش فى دار خديجة . . التى وفرت له كل مايريده من استقرار ، وتركته لتأملاته وفكره الطويل . . فقد كان محمد دائم التأمل . . متواصل الفكر .

ولم تمض أشهر قليلة حتى حملت خديجة (بالقاسم) . وكم فرح محمد بابنه القادم ، وقد شعر بالأبوة ، كما سعدت به خديجة ، وعندما ولد القاسم مات بعد سنة وعدة شهور !

لقد رحل الابن العزيز الذى كان قرة عين لأبويه . . وأصبح الناس ينادونه (بأبى القاسم)

ورزق بعد عام من مولد القاسم بابنته زينب ، ولأن النبى كان شديد الحزن لفراق ولده القاسم ، فقد أهدت له زوجته خديجة غلامها (زيد بن حارثة) . . وزيد بن حارثة كان قد فقد أهله ، وبيع فى سوق عكاظ ، وأشترته السيدة خديجة ، ولما علم أهله بأن ابنهم عند السيدة خديجة ذهبوا إليه فى مكة ، وقد خيره محمد بن عبدالله بين أن يبقى معه أو يذهب مع أهله فاختار البقاء مع محمد لحبه الشديد له .

وأمام هذا الموقف ، أخذ محمد بن عبدالله زيدا وقومه إلى الكعبة وقال للناس :

«يامن حضر من قريش وسائر العرب ، أشهدكم أن زيدا ابنى يرثنى وارثه، وانه حر أمره بيده » .

ولم يجد أهله أمام هذا الكرم المحمدى إلا أن يعودوا إلى ديارهم موقنين ان ابنهم بين اناس يحبهم ويحبونه ، وانه عند محمد بمنزلة الابن فأطمأنت قلوبهم إلى مستقبل زيد ومستقبلة فى ظل هذا الحنان النبيل المتمثل فى محمد بن عبدالله .

ثم رزقت خديجة بعد عام من مولد زينب (برقية) . . ثم انجبت (أم كلثوم) . . وبعدها فاطمة .

وفى بيت خديجة عاشت هذه الأسرة السعيدة بالأب والأم .

الأب أحسن الناس على بناته وأكثرهم عطفا عليهم وحنانا بهم .

والأم سعيدة بزوجها وابنائها من محمد ، ومعهن يعيش ابنها (هند) من أبى هاله .

وكان هند مازال طفلا . . تربى فى بيئة بالغة الصلاح . . حتى أنه بعد أن امتدت به الأيام كان يقول :

«أنا خير الناس أبا وأما وأخا وأختا . . أبى الذى ربانى محمد ﷺ وأمى خديجة، وأخى القاسم، وأختى فاطمة. فمن لأحد نسب كهذا» .

وضمت هذه الأسرة الكريمة أيضا جاريته (بركة) التى سهرت على رعاية محمد بن عبدالله منذ فارقته أمه ، وانتقلت معه إلى حيث كان ينتقل . مع جدة عبدالمطلب ، ثم عمه ابى طالب ، وآثر محمد بن عبدالله ان تعيش معه فى بيت خديجة .

كما ضمت هذه الاسرة أيضا (على بن أبى طالب) الذى أخذه ابن عمه ليعيش معه ، لان عمه كان كثير العيال ، فإراد أن يرد اليه الجميل الذى اسداه إليه عندما كفله صغيرا ، ودفع مهره (عشرين جملا) عندما اراد الزواج من خديجة . !

أسرة مترابطة . . يربطها المحبة والفهم المتبادل ، والحرص على أن يشعر الجميع بالسعادة . .

فالسيدة خديجة سيدة بالغة الثراء . . بالغة الرحمة والشفقة على أولادها وذوى قرباها . . بالغة العقل والذكاء .

ومحمد بن عبدالله . . هو أبو القاسم صاحب العقل الراجح والرؤى المستنيرة . يملك قلبا ينبض حبا وحنانا لكل الناس ، فما بال أسرته ؟ أن حبه يتسع للجميع . . وأولاده قطعة منه . . فهو سعيد بهم ، وهم سعداء بهذا الأب الحانى الذى لا تخاطبة الناس إلا «بالأمين» أو «أبا القاسم» .

ويروى رواة السيرة هذه القصة: طرقت بابه ذات يوم بدوية تبدو على ملامحها البؤس ، وماكاد يسمع صوتها حتى قام اليها مسرعا يستقبلها فى حبور ، ويقبلها ، وعيناه مليئة بالدموع . . وخرجت إليها خديجة لتسمعه يقول لها : ياأماه ! وعرفت أنها هى حليمة السعدية التى اخذته رضيعا فى بنى سعد !

وقال محمد لخديجة : ماذا ستفعلين لحليمة ؟!

وكانت حليمه قد أصاب ديارها القحط ، بعد أن أمسكت السماء عن المطر، فأصاب قومها هم ثقيل وأعطاها عشرين شاه ، كما أعطتها خديجة ناقة تحملها إلى ديارها .

هذه هى أسرة محمد وخديجة وأولادهما ومن يلوذ ببيتها التى ترفرف عليه الهدوء والسلام والسكينه .

ومرت الأيام . .

وارادت مكة أن تعيد بناء الكعبة . .

وعندما تم البناء اختلفت القبائل حول من القبائل ينعقد له الفخر ، بأن يضع الحجر الأسود في مكانه ؟!

واشتد الخلاف بين الناس . . وكادت تندلع الحرب بين هذه القبائل . . أرتفعت السيوف . . وعلت الأصوات . . وبدأت نذر الحرب ، حتى اقترح أحد عقلائهم أن يحتكموا لأول داخل إلى بيت الله الحرام ، وكان هذا الرجل محمد بن عبدالله . . والذي استطاع بذكائه أن يحسم الأمر ، ويمنع سفك الدماء . فقد اقترح أن يوضع الحجر الأسود في ثوب ويشترك في رفع الحجر رجل من كل قبيلة ، و قام هو باخذ الحجر الأسود ووضعة في مكانه . . واستحسن الناس هذه الفكرة . . التي منعت اراقة الدماء . . وصارت هذه القصة على كل لسان . . اشادة بذكاء محمد بن عبدالله .

(٣)
الرسالة الخالدة

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان مالم يعلم﴾

قرآن كريم

الرسالة الخالدة

كان محمد كثير التأمل فى الكون . كثير الصمت . . وكان يتحنث فى الأيام ذوات العدد فى غار حراء . . ومن كثرة تأملاته . . شفت روحه ، واصبح مهيئاً لتلقى الرسالة . . لقد كان كثير التأمل فى هذه الحياة . . وما وراء هذا الكون العجيب ؟!

هل يمكن أن تكون هذه الاحجار الصماء التى لا تنفع ولا تضر آلهة يعبدها الناس ،؟وكيف لأصنام من صنع البشر ان تكون زلفى وقربى إلى الله؟

وفى يوم لاينساه التاريخ . . ولم ينسه الرسول الكريم . . جاءة جبريل بوحى السماء . . وكانت أول أيات القرآن الكريم .

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ .

وعاد محمد عليه الصلاة والسلام إلى خديجة يرتجف خوفا مما شاهد ، وموقف جبريل منه ، الذى علمه أيات من القرآن الكريم . وكان ذلك فى شهر رمضان . قال لهم عليه الصلاة والسلام

دثرونى دثرونى .

وأخذه النوم عندما رقد فى فراشه من شدة التعب .

وعندما استيقظ سألته خديجة عما حدث له ؟

قال لها الرسول الكريم :

ـ لقد رأيت ياخديجة ما أفزعنى ، وما جعلنى أهيم فى الصحراء خوفا على نفسى مـــن أن أكـون شـاعرا أو كاهـــنا أو مجـنونا ، ولا أكره أكـثر من أكون أحد الثلاثة .

وأخبرها أنه رأى جبريل ، وأن جبريل أخبره أنه نبى هذه الامة ، وأن الله أنزل عليه قرآنا . وقال لها :

« رأيت شخـصا معلـقا بين الســماء والارض يقتـرب منى ويقـول : أبشر يامحمد أنا جبريل ، و انت رسول الله إلى هذه الأمة » .

وحـكى لهـــا كيف ضـمة ثلاث مرات وهو يقول له اقـرأ . . فلما سأله : ماذا أقرأ ؟

قال لـه : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

قالت له خديجة :

أبشر يابن عم ، وأثبت ، فوالله إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

وأصبـح محمـد بن عـبدالله الرسول الـذى كلف بـتبـليغ آخـر رسالات السماء . .

لم يكن الأمر سهلا ولا يسيرا .

انه من الصعب تغيير عادات الناس وتقـاليدهم ومادرجوا عليه من أمور الحياة ، فكيف يمكن تغيير معتقداتهم ؟

كيف يمكن اقناع تلك العقول التى عششت فيها الأساطير والخرافات بهذا الدين الجديد ، بما فيه من قيم واستناره وحضارة !

كيف يمـكن أن يطهـر النفوس بماران عـليها من عـادات جاهليـة ، وأفكار قبلية ، وتعصب عشائرى .

كيف يمكن أن يقنع الناس بضرورة الإيمان باله واحد . . خلق الإنسان من طين ، ثم سواه فجعله بشرا ، وأن على هؤلاء البشر أن يتعاطفوا مع بعضهم البعض ، ويآزر بعضهم البعض . . ويأخذ القوى بيد الضعيف ، ويساعد الغنى الفقير ؟

كيف يحول هذا المجتمع المكى بعصبياته وأفكاره إلى مجتمع جديد ، يتدرج منه إلى كل القبائل العربية ، ثم يوحد كل هذه القبائل تحت لواء دولة واحدة ، ليكون ذلك نقطة انطلاق لينتشر نور الاسلام فى كل بقاع الدنيا ؟

الأمر بالغ الصعوبة .

صحيح أن الرسول وقد كلف بأعباء الرسالة لن يكون وحده . . وسيكون معه الخالق العظيم ، والمهيمن على كل الكائنات . . سيأزره بالوحى . . الذى سوف يتنزل عليه بالتوجيهات الربانية ، وتبليغ الرسالة وما فيها من عقائد وتشريعات وفضائل . . ولكن الرسول بشر . . وله طاقة . . ولن تدعة قريش يؤدى مهمته دون عوائق ، ودون ان تقف له بالمرصاد ، البعض سيحاربه حقدا وحسدا أن ترتفع بنى هاشم بهذه الرسالة فوق القبائل .

والبعض سيحاربه جهلا وبغضا فى الجديد .

والبعض الأخر سيحاربة لأن عقله قد طمسته غباء العادات والافكار الجاهلية !

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام مثالا للتكامل الانسانى فى شخصيته وسلوكياته وفضائله ورباطة جأشة ، ولينه للناس ، وحسن معاشرة الجميع .

لقد ظل أعظم رسل الله يدعو قومه سرا ثلاثة سنوات لم يؤمن بدعوته سوى ثلاثة عشر رجلا . . وكان أول من آمن بهذه الدعوة السيدة خديجة ، ومولاه زيد بن ثابت وعلى بن ابى طالب ، وصديقه أبوبكر الصديق والذى

قال عنه عليه الصلاة والسلام : «ما دعوت أحدا إلى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبى بكر ». .

وهذا الحديث الشريف يعنى ان ابا بكر لم يتردد فى الايمان بالدعوة الاسلامية بمجرد ان عرضها عليه الرسول الكريم وآمن بايمان ابى بكر عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، و سعد بن ابى وقاص ، وعبدالرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وابوعبيده بن الجراح . .

كما استجاب للدعوة سعيد بن زيد بن عمرو ابن تفيل ، وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، وأم الفضل زوجة العباس عم الرسول علية الصلاة والسلام ، وأبى سَلَمه بن عبدالله (المخزومى) والأرقم بن ابى الأرقم ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وأخيه عمرو .

كما آمن بالدعوة من الموالى والمستضعفين بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر ، وصهيب الرومى ، وخباب بن الأرت ، وعبدالله بن مسعود .

ولتعرف كم كان الامر صعبا على الرسول عليه الصلاة والسلام . . انه عندما أمر بالجهر بالدعوة ، ان صعد على الصفا وطلب من الناس ان يسمعوه نادى فيهم . يابنى مر ، يابنى عدى . . . وغير ذلك من بطون قريش ، وعندما اجتمع حوله الناس قال لهم :

«أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد ان تغير عليكم ، اكنتم مصدقى» .

قالوا : نعم . ماجربنا عليك كذبا .

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبولهب .

ـ تبا لك . . الهذا جمعتنا ؟

فنزل قوله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ .

وجمع الرسول الكريم أقاربه وقال لهم : الحمد لله، أحمده واستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه وأشهد أن لا آله إلا الله وحده لا شريك له.

أما بعد:

« فإن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا اله الا هو أنى لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لاتموتن كما تنامون ، و لتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار ابدا » .

وبدأت أنوار الرسالة . .

وبدأ رد الفعل العنيف من كفار مكة .

وبدأت مكة تعذب الضعفاء ممن اسلموا كبلال وياسر وزوجته سميه وابنهما عمار بن ياسر. .

وكان أن أمر الرسول عندما اشتد أذى الكفار من يريد ان يهاجر من أتباعه إلى الحبشة فليهاجر .

وظل أعظم رسل السماء يبلغ رسالات ربه . . متحملا الأذى . . يسانده أصحابة ، وزوجته العظيمة خديجة ، وعمه أبوطالب .

وكان أعظم رسل السماء عندما يعود إلى منزله ، يجد الحنان من زوجته خديجة ، ومن أولاده الذين يلتفون حوله فى حنان : زينب ورقيه وأم كلثوم وفاطمة .

بنات فيهن من أبيهم كل الصفات والفضائل والنبل وفيهما من أمهن الحب والايثار وشجاعة القلب والعقل .

كانت زينب أكبر بنات الرسول . وقد تقدم للزواج منها ابو العاص بن الربيع وقد عرض الأمر على خالته خديجة فهو ابن اختها (هالة) . . وعرفت الام باحساسها ان العاص يحب زينب ، وأن زينب لا تمانع فى الزواج به ، فعرضت الأمر على محمد عليه الصلاة والسلام ووافق على زواج ابنته لما كان لابى العاص من رجوله وأمانه ومنزلة فى مكة ، وقد أهدتها امها ليلة زفافها (قلادة) قبل انتقالها إلى منزل الزوجية .

وقد أسلمت زينب ، بينما ظل ابو العاص على دين قومه . . كان يحب زوجته التى تبادله نفس المشاعر النبيلة وظل وفيا لها .

ورغم عدم إسلامه الا انه لم يجر وراء ماتسوله له أهل مكة من ان يطلق زوجته ، فقد رفض ذلك . . ولم يتعرض للمسلمين بأذى . . بل آثر أن يعيش حياته بعيدا عما يجرى فى مكة من أحداث .

لقد فعل عكس ما فعله ابولهب ، عندما خطب رقية قبل النبوة إلى ابنه عتبه ، وام كلثوم إلى ابنه عتيبة . . ولكن عندما دعا النبى إلى الرسالة الخاتمة أنكر عليه ابولهب ذلك ، وطلب من ابنيه ترك رقية وام كلثوم .

وأسرع عثمان بن عفان إلى الرسول طالبا يد ابنته رقية وكانت رقية شديد الشبة بامها خديجة . . وقد هاجرت مع عثمان إلى الحبشة ، ثم هاجرت معه بعد ذلك إلى المدينة ، وماتت عقب عودة المسلمين من غزوة (بدر) التى حققوا فيها انتصارهم الساحق على مشركى مكة . .

وقد تزوج عثمان رضى الله عنه بعد ذلك بأم كلثوم ابنة الرسول من اجل ذلك اطلق عليه ذو النورين

(٤)

احزان الرسول

« معلوم لكل ذى لب أن محمداً صلى الله عليه وسلم من أعقل خلق الله تعالى. بل أعقلهم وأكملهم على الأطلاق فى نفس الأمر».

ابن كثير

احزان الرسول

وتمضى الأيام . . .

ويأذن الله لرسوله وللمؤمنين بالهجرة إلى المدينة وفى المدينة يؤاخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين ، ويعلن صحيفة هذه المدينة يؤمن فيها اليهود على دينهم وأموالهم . . كانت هذه الصحيفة بمثابة الدستور بين مختلف سكان المدينة يعيش الجميع فى ظلالها فى أمان على الا يخرج عليها أحد . . بأن يجير الأعداء أو يتحالف معهم . . او يساعدهم . . وأصبحت المدينة دولة يرأسها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى يديه أمور الدين والسياسة .

وقد وافق اليهود على هذه الصحيفة فى أول الأمر ، ثم سرعان ما تجاهلوها وغدروا بتعهداتهم . . واسلم (منهم عبدالله بن سلام) . وكان يقول لليهود:

ـ انه لرسول الله الذى بشرت به التوارة ، وانكم تعرفونه كما تعرفون ابناءكم .

واخذ اليهود فى المدينة يحاولون تعجيز النبى بأن يسألون أسئلة على امل ان يعجز عن الاجابة ، فيعلنون عليه حرب التشكيك فيه وفى الدين الذى جاء به .

سألوه عن الساعة ؟

وسألوة عن الروح ؟

وسألوه عن ذى القرنين. رد عليهم الرسول بما جاء به وحى الله حول يوم القيامة.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ (الاعراف ١٨٧).

ورد حول تساءلاتهم عن الروح بما انزل عليه من آيات القرآن الكريم. ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ الاسراء ٨٥.

وعن (ذى القرنين) قال قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ (الكهف ٨٣ ـ ٩٠).

وكان الرسول العظيم وهو فى يثرب .. يدعو إلى الله .. ويقوم بين المسلمين يعظهم ويرشدهم إلى طريق الصواب ، ويواصل رسالته لمختلف القبائل .. لا ينسى ابنته زينب التى تعيش فى مكة مع زوجها ..

وتتابعت الاحداث ، وفرض الجهاد على المسلمين ، وكان ذلك بداية الاحتكاك العسكرى مع قريش ، ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (الحج ٣٩).

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ

﴿ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (البقرة ١٩١) .

وكانت غزوة بدر الكبرى . حيث انتصر المسلمون انتصارا ساحقا على جيش مكة . . و حيث قتل أئمة الكفر من أمثال ابى جهل ، وأميه بن خلف.

وكان من بين الاسرى (أبو العاص بن الربيع) زوج زينب بنت الرسول .

وكان الرسول قد استشار أصحابة فى أمر الاسرى وكان من رأى أبى بكر الصديق :

«يارسول الله ، قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم».

وكان رأى عمر بن الخطاب .

«يارسول الله : أخرجوك وكذبوك مر بهم فاضرب أعناقهم ».

وكان رأى عبدالله بن رواحه :

«يارسول الله انظر واديا كثير الحطب ، فادخلهم فيه ، ثم اضربه عليهم نارا» !!

واستعرض الرسول هذه الاراء . . وقال لاصحابة : "إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون آلين من اللَّبنَ .

وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة .

أنتم فقراء فلا يبقين أحد من الاسرى الا بضربة عنق او فداء

وإن مثلك يا (أبا بكر) مثل ابراهيم حين قال :

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (ابراهيم ٣٦) .

وإن مثلك ياعمر مثل (نوح) حين قال:

﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح ٢٦) .

ونزل الوحى مؤيدا رأى ابن الخطاب :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الانفال ـ ٦٧ ـ ٦٨) .

وها هو الرسول وقد طلب من الاسرى الفداء وعلمت زينب بأسر زوجها فأرسلت تفديه بالقلادة التى اهدتها له امها خديجة عند زفافها . .وعرف الرسول العظيم القلادة . . وانها هدية زوجته الراحلة العظيمة خديجة بنت خويلد لابنتها . . وتداعت اليه الذكريات وسقطت من عينيه الدموع .

والتفت إلى اصحابة حزين القلب . . تملأ عينية الدموع وقال لهم :

- بعثت إلى زينب بقلادة خديجة لتطلقوا لها زوجها فان رأيتم أن تطلقوا لها اسيرها ، وتردوا عليها قلادتها فافعلوا .

ونظر الصحابة إلى الرسول وهو غارق فى حزنه . . فقالوا له: ونعم نطلق لها صاحبها ، ونرد لها قلادتها.

وتوجه اعظم رسل السماء إلى زوج ابنته وهو يودعه فى طريق عودته إلى مكة ، وطلب منه ان يرسل اليه بابنته زينب ، لانها لم تعد تحل له ، فهى مسلمة ، وهو مازال على دين قومه .

ورجع (ابوالعاص) إلى مكة . . وبَّر بوعده . . وطلب من زينب ان تذهب إلى والدها فى المدينة .

وكان هذا الوفاء العظيم من النبى لزوجته وابنته سببا بعد ذلك ان يدخل

(ابوالعاص الإسلام) والعجيب أنه عندما عاد الرسول الكريم من غزوة بدر . . منتصرا . . ومحققا هذا الانطلاق العظيم للاسلام . . بينما هو سعيد بانتصار الاسلام . . بهذا النصر الحاسم على جيوش الظلم والظلام . . إذا به يعلم ان ابنته (رقية) زوجة عثمان بن عفان قد رحلت إلى جوار ربها الكريم .

كم تحمل أعظم رسل السماء بما يفوق طاقة البشر .

تحمل بطش مكة وسفالة مشركيها . .

أنه لم ينسى قط هذه الاسرة الكريمة . . أسرته المحمدية التى و قفت تآزره فى أشد الظروف وأقساها .

زوجته الجليلة خديجة بنت خويلد . . التى ساندته فى دعوته إلى الله ، وتحملت معه مشقة الحياة فى العزلة التى فرضتها (مكة) على بنى هاشم عندما حاصروهم فى شِعب من شعاب مكة . وتحملت وهى السيدة الثرية المنعمة كل هذا العذاب .

وابنته فاطمة التى ولدت حينما أرادت قريش ان تعيد بناء الكعبة . . وكان الرسول الكريم فى الخامسة والثلاثين من عمره عندما جاءت (فاطمة) احب ابنائه إلى قلبه إلى الحياة . . فقد ولدت قبل المبعث بخمس سنوات . واحبها الرسول الكريم . . وراقب نموها . . وكان يربت فى حنان على ظهرها .

وهاهى الايام تمر . .

وتأتى الرسالة الخالدة .

كانت فاطمة مازالت طفلة وهى ترى جهاد والدها العظيم بين اناس يحملون قلوبا أشد من الحجارة قسوة ، حتى أنهم لم يتورعوا أن يلقوا عليه القذورات وهو ساجد بين يدى ربه فى البيت الحرام ، وتأتى فاطمة الصغيرة لترفع هذه القذورات عن ظهر والدها بينما يتناهى إلى سمعها ضحكات المستهترين من زعماء قريش !

حتى أن الرسول الكريم عندما رفع رأسة من السجود ، بعد أن ازالت فاطمة عن والدها ما ألقاه الجهلاء على والدهم . . رفع يده إلى السماء . . ودعا عليهم «اللهم عليك بقريش» . . قالها ثلاث.

وهاهو الرسول الكريم . . بعد عودته من «بدر» يفقد رقيه ، كما فقد أمها منذ سنوات فى مكة . .

هذه الأم التى لم ينسها قط . . وكان يقول عنها كلما جاء ذكرها بعد هجرته إلى المدينة «لقد آمنت بى إذ كفر بى الناس».

وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس.

ورزقنى الله عز وجل منها الولد ، ولم يرزقنى من غيرها من النساء.

وها هو الرسول يتذكر كل مامر به من أحداث فى مكة .

خديجة . . الوفية الراقدة تحت ثرى مكة وابنته رقية التى فقدها منذ ايام . وزينب ابنته الكبرى التى طلب من زوجها العاص ان تعود إلى ابيها فى المدينة.

وبقيت من رائحة خديجة ابنته ام كلثوم التى تزوجها عثمان بن عفان وصفوه بناته فاطمة الزهراء .

ولم ينسى الرسول الكريم وهو يستعرض اسرى بدر ، ورأى النضر بن الحارث وعقبة بن ابى معيط . . ما فعلاه به.

الاول كان شاعرا متذعا طالما هجا الإسلام والمسلمين وطالما ردد أن القرآن من أساطير الأولين ، ولذا أمر النبى بقتله .

أما الثانى وهو عقبة بن معيط ، طالما أفحش فى حق الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى أنه ذات يوم و ضع رجله على عنق الرسول وهو قائم يصلى فى بيت الله الحرام حتى شعر الرسول ان عينية ستخرجان من مكانهما. ومرة أخرى رمى عليه القاذورات وهو ساجد ، وجاءت فاطمة بنت الرسول لترفعها عنه . . وهذا الرجل أيضا أمر الرسول بقتله .